تقديم المؤلف

الكتابة فى تبسيط العلوم والثقافة العلمية مهمة لكل مجتمع ينشد التقدم، خاصة فى مجتمع مثل مجتمعنا. ولقد تصديت للكتابة فى هذا المجال منذ عقود، على أنه يراودنى الآن حلم الكتابة فى فلسفة العلوم أكثر من تبسيطها، لقناعتى أن فلسفة العلوم أمضى فى التأثير على المجتمع والسعى به نحو الأفضل.

الفيلسوف والفلكى الأمريكى الفيتنامى الأصل «ترين كسوان ثوان Trinh Xuan Thuan» يقول فى وصفه للطبيعة والكون: ليست الطبيعة صامتة، بل هى ترسل موسيقى رخيمة، ولكنها لا تكشف لنا عن سر هذه النغمات وهذا الجمال إلا بالعلم الحر، فأهلا بالعلم الحر فى الزمن الحر والمكان الحر لخدمة الإنسان الحر. إن للعلم الآن اليد العليا بل تكاد تكون اليد الوحيدة فى تطور الحياة على الكرة الأرضية، فلابد أن يستجيب البشر لسطوة العلم ويتركوه ينظم حياتهم ويغير من غرائزهم وتقاليدهم للأفضل. يقول الطبيب والفيلسوف الفرنسى من أصل مغربى «موريس بوكاى Maurice Bucaille»: لقد اكتسب الإنسان حريته من خلال تنازله أو تخليه عن العديد من العقد الغريزية، وكذا التخلى عن الأفكار والعادات والتقاليد التى تضر بالمجتمع.

الكتابة فى الثقافة العلمية تعتبر مثل الناقوس الذى يدق لتنبيه المجتمع لأهمية ريادة العلم من أجل مجتمع أفضل. مجتمع يتمتع

بالحرية الكاملة. نحن – الشـرقيين – نُكون مجتمعا يختلف عن معظم المجتمعـات المتقدمة من سـكان المعمورة. نحن نحب مـا يكرهه معظم البشـر على سـطح الأرض. ونحرم ما يحلله أكثر البشـر. وما نعتبره جرائم نعاقب عليها بعضنا البعض. وهى ليست بجرائم فى المجتمعات الأخرى. فما هـى الفروق بيننا وبين باقى مجتمعات العالم. يكاد يكون من غير المسـموح فى بلادنا الحديث بحرية وبصراحة عن أشياء تخص حياتنـا ومجتمعنا لفهم ومعرفة أنفسـنا. هناك خطـوط حمراء وضعها المجتمع ليحمى نفسـه من التغيير خوفا من المجهول الجديد أو حفاظا على تخلفه. من ضمن الأشـياء التى تسـاعد على ذلـك لغتنا الجميلة. فهى تفتقر إلى المفردات الكافية. خاصة العلمية منها. مما يجعل فهمنا للأشياء قاصرا ومنقوصا.

كل تلـك الخواطر تراودنـى حين أبدأ الكتابة. وهـل لى أن أدخل معـترك كُتَّـاب التنوير من بوابة تبسـيط العلوم. أم أدخلـه من الباب الطبيعى له كفلسـفة يجب على المجتمع أن يفطن لها. أو حتى تكون من خلال رواية يحمل شـخوصها مشعل التنوير. وفى كل الأحوال تظل كتاباتى كلها متأثرة بتخصصى فى الفيزياء الفلكية والفضاء. فهى رؤية جديدة من وجهة نظر فلكية وفيزيائية.

فى كل سـفره من سفراتى أحمل معى روايات أدبية عديدة. أقرؤها ليعاودنى الحنين والرغبة فى الكتابة الفلسفية العلمية. والبُعد قليلا ولو مؤقتا عن الكتابة فى تبسيط العلوم. إننى أشم فى كل رحلة من رحلاتى رائحـة كل بلـد. وتراب كل بلد. وأشـعر بقربى لإنسـان هذا البلد. وأرضه وشمسه وروحه. ولا أجد فرقا بين أهل هذا البلد وبينى كإنسان

سوى أنى لم أولد بتلك البلد، بل أجدنى غارقا فى تراثه وتاريخه وحضارته وهى ليست غريبة. وحين تطأ قدماى مطار القاهرة أعود وكأننى ما سافرت ولا تأثرت ولا عايشت آخرين، حتى إنه وخلال بضعة أيام أكون قد نسيت تماما رحلتى هذه وتلك البلاد، وكأنى لم أرها من قبل، ولا يبقى إلا القليل من أوراقى العلمية التى قدمتها هناك أو أوراق علمية أخرى أخذتها من هناك. أشعر أننى أفقد الكثير بعدم كتابتى أثناء وبعد تلك الرحلات، ليس عن العلم فقط، بل عن تلك الشعوب وفلسفتها وعلمها، وعن هذه الحضارات التى سبقتنا أحيانا، أو مازالت تحبو مثلنا فى بدايات الحياة الحرة التى نتمناها. إن غالبية المحظورات فى بلدى مباحة فى معظم بلاد العالم، وكل جميل وممتع فى بلدى محظور أو غير مرحب بعمله. إنسان بلدى يعانى من الغربة أحيانا فى وطنه، وأحيانا أخرى يعانى من كثرة أو هوجة الكذب والكذابين والنفاق والمنافقين.

بعد طوفان ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١(*)، راودنى الأمل طويلا، بل كدت أن أتيقن من قدرة مصر على الخروج من عنق زجاجة التخلف، وخاصة بعد سلوك من قاموا بالثورة فى تنظيف ميدان التحرير بعد الاعتصام، ومطالبتهم بتغيير العادات البالية قبل المطالبة بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية. أسعدنى وجود شباب لا يقل ذكاء وألمعية عن شباب أكبر الديمقراطيات فى العالم، كدت أصدق أن الثورة قد غيرت العقول والتراث البالى المتمكن فى العقول، لكن هذا الأمل بدأ يخفت رويدا. بل راودنى الخوف من أن تكون تلك بدايات لموت نهائى لا رجعة بعده. لكن الأمل مازال بازغا طالما بقى هذا الشباب.

(*) التواريخ التى سترد فى الكتاب بالسنة الميلادية.

هـذا الكتاب عـن فرقـاء العلم والفلسـفة يختلف عن سـابقيه من مؤلفاتى. فهو يروى تجارب بعض العلماء والفلاسـفة الذين أثروا تاريخ البشـرية، وكيف كان لهم مناوئون وفرقاء عنهـم. وكيف تعامل هؤلاء العلماء والفلاسفة مع منتقديهم من زملائهم أحيانا أو من القادة المدنيين أو الدينيـين فـى عصرهم أحيانا أخرى. وكيـف تغلب الخير والفضيلة على أعدائهما لتستمر البشرية فى النمو والتطور. وفى جزء مهم من هذا الكتـاب نراجع الخلافات والاختلافـات فى مجتمعنا الحالى وكيف أن التخلف كان له تأثير على تلك الاختلافات.

سوف يكون هذا الكتاب بداية للخروج من القالب القديم فى الكتابة عن العلم وتبسـيط العلـوم، للكتابة فى موضوعات علمية وفلسـفية من وجهة نظر فلكية. ربما كان آخر ما نشـر لى، وهو كتاب «أحاديث عن العلم»، والذى صدر ضمن سلسلة «اقرأ» عن دار المعارف المصرية. مقدمة لهـذا الخـروج، ولكنه مع هـذا كان ليس خروجا بالصـورة التى كنت أنشـدها. ولعل هذا الكتاب يكون كما وددت ناقوسا يدق للتنبيه للخطر القادم إلى مجتمعنا. ومقارنة بالمجتمعات الأخرى. قبل فوات الأوان.

المؤلف